صور: نشيد البحر الأزلي

حسن المطروشي
تصوير: وليد المتغوي
سعيد الخمياسي
عبدالعزيز العلوي

صباحَ الخير يا صُورُ
صباحًا ساقَهُ التكبيرُ والنورُ
لوجْه مَليحةٍ حجَّتْ إلى شطآنها الحُورُ
تَراقُصُ موجةٍ غَنَّتْ لها تلك العصافيرُ
وحارتْ في أغاني الحبِّ ألحانٌ وتعبيرُ
صباحَ الخيرِ...
كلّ الخيرِ يا صُورُ

ناصر البلال

صبيحة يوم ديسمبري هادئ ومعتدل، تقودني خطاي إلى التنزه في طرقات مدينة صور العفية. تلك المدينة الهاجعة منذ قرون في أحضان البحر، يبتكران معا سيمفونية عشق أبدية، ترددها النوارس وترويها الأشرعة، ويحملها البحارة والنواخذة والغواصون إلى محيطات العالم.

المدينة في دفئها وسكونها القديم، تهجع بوداعة الأميرات على رمال الشاطئ، حيث يجلس البحارة والعشاق والقوارب وتنتشر المقاهي الصغيرة التي تقدم القهوة وشاي الكرك الذي يعشقه الصوريون بنكهاته المختلفة ويتنشر في صور بشكل لافت. الشاي مشروب البحارة العمانيين دون منازع.

تأخذني الطرقات عبر المدينة بأسواقها وبين أزقتهان مرورا بمآذنها التي تنتشر في كل مكان، وعلى مقربة من بعضها في كثير من الأحيان، لتشير إلى المساجد الصغيرة التي تكتظ بالمصلين عند كل صلاة.

×××

دائما ما أكون على لهفة كبيرة، كلما مررت بصور، أن أزور الواجهة البحرية للمدينة. ثمة ما يوقظ داخلي شعورا بالحنين والسكينة في هذا المكان. للبحر حضور مهيب وهو يحرس المدينة طيلة قرون، هادرا قبالة منازلها البيضاء كسرب من النوارس يحط في وداعة متناهية.

للسفن والبحر هنا قصة أزلية خالدة. من هنا أبحر الفينيقيون الأوائل ليعبروا محيطات العالم ويكتشفوا جهاته وموانئه وسواحله البعيدة، وصولا إلى الصين والقارة الهندية وبلاد فارس وشرق إفريقيا وشواطئ الخليج العربي وبلاد الرافدين وغيرها من الأماكن التي ما تزال شاهدة على مرور الإنسان العماني الذي هيمن على التجارة البحرية على مدى قرون من الزمن نظرا لما يتفرد به من أسطول بحري أكسب العمانيين هيمنة مطلقة عسكريا وتجاريا وحضاريا. كانوا يغرسون ذكرياتهم وطقوسهم وأسماءهم وينقشون تواريخهم ويرسمون آثارهم في كل بقعة من العالم. وما زالت مدينة صور في الجنوب اللبناني شاهدة على مغامراتهم، وهي التي أطلقوا عليها اسم صور على غرار صور العمانية التي انطلقوا منها بأحلامهم وأهازيجهم وحمولاتهم وبضائعهم التجارية، ليحققوا بذلك أعمق المشاريع الحضارية للتواصل والتحاور بين الحضارات والشعوب منذ القدم، وليسهموا في التمنية والبناء. وينقل الباحث ربيع بن عمبر العريمي في كتابه (صور العمانية مهد الملاحة البحرية) «ما أورده المؤرخ والرحالة اليوناني هيرودتس (٤٨٤ ـ ٤٢٥) قبل الميلاد، والمعروف بأبي التاريخ، حيث ذكر في كتابه (التاريخ) أن الفينيقيين هاجروا من صور العمانية إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض

المتوسط قبل ٢٥٠٠ سنة، واستقر بعضهم في لبنان حيث أسسوا على ساحلها مدينة أطلقوا عليها نفس الاسم».

×××

أقود السيارة ببطء شديد عبر طريق الواجهة البحرية للمدينة (الكورنيش)، المنازل عن يميني والبحر عن يساري، مشدودا بمنظر منار رأس الميل وهو يقف شامخا على ناصية شاطئ العيجة وهي الضفة الأخرى لصور، حيث تأخذك الطريق إلى الجسر المعلق أو جسر العيجة كما يمسيه السكان. أنعطف يمينا لأعبر الجسر، حيث يقف العابر على أكثر مناطق الوجود سكينة وخشوعا وفتنة.

في الخلف تلوح المدينة بمبانيها وبيوتها وقبابها وروائحها وأصواتها الصاعدة للأعالي. وفي الأسفل يمتد خور البطح الذي يشكل لسانا مائيا رقراقا يفصل بين ضفتي صور المدينة والعيجة، محتضنا السفن والقوارب الشراعية الراسية على صفحته الصافية. للمكان جاذبيته العميقة على هذا الجسر، لذا أوقفت المركبة في المواقف الخصصة على مقربة ومشيت على الأقدام متأملا هذا الجمال الذي يفيض مع نسمات البحر الآتية من كل صوب، كأنما تزف أصوات البحارة و «النهامين» مرددين «الهولو» و«اليامال»، وهي الفنون البحرية التي يتقنها أهل صور جيدا ويعشقونا أيضا.

مأخوذا بهذا التوق العميق أصعد المركبة من جديد متجها نحو العيجة المحصنة بأبراجها وحصونها من كل الجهات، على الجانب الآخر من الخور، أعبر شوارعها وأزقتها المتعرجة صولا إلى منارة رأس ميل. أترجل من السيارة مجددا لأواصل المسير مشيا على الأقدام إلى الفناء الدائري للمنارة التي تقف قبالة شاطيء الكورنيش، حيث تبدو مدينة صور على الضفة الأخرى وكأنها غيمة من البياض والطيور والأحلام الناصعة.

ويقف برج أو منار رأس ميل على مدخل خور البطح من جهة العيجة، يحيطه به سور دائري يمكن للزائر الوقف فيه للاستمتاع بالمشهد الآسر، حيث يمنحك الوقوف هنا لتسريح النظر إلى زرقة مياه البحر من جهة في أوسع مداها، ومن جهة أخرى إلى صور المدينة في سطوعها البانورامي البديع كأنما حورية البحر قد خرجت للتو تمشط جدائلها الأسطورية على رمال الشاطئ.

×××

عودا إلى طريق البرج المعلق أنعطف بعده يمينا لاستكمال الطريق الساحلي، وليس ببعيد أتوقف عند ورشة صناعة السف على حوض الخور. ولصناعة السفن هنا حكاية قديمة يسردها التاريخ وتحتفظ بها ذاكرة الماء. فمن موانئ صور وعلى يد فنييها خرجت للعالم أنواع السفن والمراكب والزوارق البحرية مثل الشوعي والسنبوق والغنجة والبوم والماشوة وغيرها مما يشهد به التاريخ البحري العريق لهذه المدينة. يقول الباحث ربيع بن عمير العريمي: «لقد توارث أهالي صور صناعة السفن ابنا عن أب وأبا عن جد، وأبدعوا وتفننوا فيها، حيث برز أستادية (مهندسون) عرفوا برجاحة العقل وحسن التدبير ودقة القياس ومعرفة أصناف الأخشاب، وعملوا بأدوات بدائية بسيطة، تمكنوا بها من صنع سفن كبيرة، تراوحت حمولتها من (١٠٠ إلى ٢٥٠ طنا) قادرة للإبحار عبر المحيط الهندي، بالرغم من أنهم لم يستعملوا مخططات مرسومة على الإطلاق. وتتلمذ على

أيديهم رعيل من أبناء المدينة، أصبحوا فيما بعد بناة سفن الأسطول التجاري الذي امتلكته صور، وكان له الفضل الكبير بالتعريف بعمان كأمة بحرية سادت البحار حقبة طويلة من الزمن».

رائحة الأخشاب تملأ المكان في هذا المصنع، الذي يحتض السفن الجديدة قيد الإنشاء، بالإضافة إلى الحبال والأدوات التقليدية الأخرى التي استخدمها البحارة العمانيون الأوائل والتي ما تزال مستخدمة حتى يومنا هذا. صرير المنشار وصوت دقات المطرقة على المسامير يوحي بحياة مختلفة على هذا الشاطيء، رغم قلة العمل، إلا أنه يشير إلى بقاء هذه المهنة وخلودها وارتباط العماني بها، وتمسكه بإرثه التليد، رغم تطور وسائل الحياة. هذه السفن الوليدة ستأخذ طريقها للمحيطات بعد حين!

×××

أغادر مصنع السفن لأواصل طريقي باتجاه مركز فتح الخير الذي يقع على مقربة من المصنع. في فناء هذا المركز تقف سفينة «فتح الخير» الأسطورية، التي تعد آخر ما تبقى من ذاكرة الأسطول البحري في صور. تقف هناك حيث تمت صناعتها عام ١٩٥١م، في حي الرشة بمدينة صور، لتبحر بين نظيراتها من السفن العمانية العملاقة، محملة بالخيرات إلى موانئ العالم.

كانت «فتح الخير» من أوائل السفن التي تحظى بمحرك الديزل، بعد أن كانت تسير بشراعين عملاقين ويعمل عليها ما لا يقل عن عشرين بحارا. وقد تنقلت ملكية السفينة من تاجر إلى آخر، حتى اشتراها أهالي صور مجددا ليعيدوها إلى موطنها الأصلي بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٩٣م، لتطل في هيئتها المهيبة من على شاطئ خور البطح، تسرد للأجيال تاريخا عظيما سطره الأسلاف على صفحات الماء.

لم أشعر بخيانة الوقت المراوغ وهو ينسل من بين أصابعي. وكم كنت أود الذهاب إلى نيابة رأس الحد لمشاهدة محمية السلاحف والاستمتاع بجمال الطبية هناك أيضا. إلا أن موعد عودتي إلى مسقط قد حان، فسلكت طريقي راجعا عبر الشارع السريع الذي يربط مسقط بصور. الطريق بحد ذاته متعة لا متناهية، فهو يمر بمحاذاة الساحل مجتازا القرى الساحلية الوادعة على الشاطئ بملامحها العمانية وجدرانها البيضاء في الغالب، ترفرف على سقوفها النوارس وتعطرها نسائم البحر. وما زال المسافر يرى السفن بأنواعها ترسو على امتداد هذه الشواطئ في حوارية تاريخية خالدة. ولعل أهم ما يمر به الطريق منطقة "قلهات" وهي المنطقة التي أقام بها مازن بن فهم الأزدي الذي رسخ الوجود العربي وبسط نفوذه على الأرض العمانية وانطلق منها يؤسس ملكته العظيمة.

إن في هذه المواطن الكثير من التاريخ ليروى والكثير من الجمال ليكتشف، ولا يمكن لجولة سريعة أن تحيط به، ولم يكن ما كتب هنا سوى شذرات قليلة من فيوض الدهشة والمتعة التي يعيشها المتجول العابر في تضاريس المكان.